فصل من رواية "الصخرة" *

فيصل حوراني **

يوم طويل, من غزّة إلى عمّان, من الوطن إلى المنفى مرة أخرى, المنفى الذي يبدو أنه لا مفرّ منه. امتطيت خيبة أملي, أو لأقل إن خيبة الأمل هي التي امتطتني فيما أنا راجع إلى حيث تنتظرني أمي. نقلتني سيارة أجرة فيها سبعة مقاعد من مدينة غزّة إلى المعبر الذي أقامه محتلو وطني على أرض بيت حنون وسموه معبر إيرز, ماسحين بالإسم العبري المختلق الإسمَ العربي الأصلي للمكان. ونقلتني قدماي داخل معسكر الجيش الإسرائيلي الفسيح الذي تتوسطه إدارة المعبر. وبعد عذاب الإنتظار وعذاب التفتيش والتدقيق في الأوراق, ومع المهانات التي خبرتموها, نقلتني سيارة أخرى إلى أريحا. فجور العدو لا يرسم حركة ناس وطننا وحدها, بل يرسم أيضاً حركة السيارات التي تنقلهم. وبين بيت حنون وأريحا, عبرت السيارة بركّابها السبعة ما يعدّه الإسرائيليون أرض دولة إسرائيل وما يسمونه أرض- إسرائيل, هم الذين يستخدمون التسميات المزوّرة ممحاة لشطب إسم فلسطين. ومن أريحا, في باص ركاب كبير هذه المرة, بلغتُ المعبر الإسرائيلي الذي سأجتازه لأصير خارج وطني. معسكر إسرائيلي آخر فسيح, وإدارة معبر, وعذاب, ومهانات, لم أنخلع منها إلا منذ وجدتني على أرض الأردن, حيث أمكن أن أتابع السفر دون مزيد من المنغّصات.

مع الوقع الثقيل للوقت الذي انقضى بين معبرين إسرائيليين, مع دبق العرق والغبار, أمكن أن أجتاز أخطار الحواجز العسكرية الثابتة والطارئة التي يتصيّد جنود الإحتلال بها الفرص لتشديد عذاب

* هذا مقطع من رواية للكاتب لم تنشر بعد، يليه في العدد القادم المقطع الثاني من الفصل ١ في الرواية. عنوان هذه الرواية: الصخرة.

** كاتب من فلسطين

ضحاياهم. ومع الهواجس التي ظلّت تفترسني منذ غادرت عمّان قبل شهرين, تكثّفتْ رغبتي في أمل محا الآمال كلّها: أن أبلغ منزلنا في المدينة التي نشأتُ فيها وأستريح؛ إراحة الجسد وتهدئة أوجاع الروح والنوم وإطالة النوم, هذا هو ما أملتُ فيه. موجوع الروح يغرق في نوم عميق إن كان مبعث الوجع هو الإحساس بالقهر والخذلان كما هو مبعث وجعي, وهذا هو ما عوّلت عليه. غير أن فضول أمي أرغمني إرغاماً على إطالة السهر, أنا الذي بلغتُ المنزل مع غياب الشمس.

لم تنتظر المفاجأةُ بعودتي أن أتحرّر من الدبق, بل بدأ صوتها مناوشتي بالأسئلة وأنا ما أزال في الحمّام, ولم ترحمني بعد ذلك, بل اتصل مطر الأسئلة بالصوت والنظرات. فحكيتُ, وواصلتُ الحكي إلى أن أوهنت طراوة الليل لساني وتغلّب عليّ سلطان النوم. وقبل أن تشرق الشمس, قبل أن أستوفي حاجتي إلى الراحة , بدأت أمي محاولتها حملي إلى الاستيقاظ؛ تعيدني حاجتي للراحة إلى النوم, فيشدّني منطق العجوز إلى الصحو. وفيما هي تمسِّد وجهي وتعتذر عن إزعاجي وتُذكّرني بأن نوم الضحى يقطع الرزق وأن لا بدّ مما ليس منه بدّ, ظللتُ أنوس بين لحظة إغفاء وبين لحظة صحو, وظلتْ هي تكرّر المحاولة دون كلل وتعيد تذكيري بالسبب الذي يُرغمها على إيقاظي, فتداهمني الذكريات التي أفرّ منها.

لعلّ من حق من لا يعرفوني منكم أن أعرِّفهم بنفسي قبل أن أوغل في الحكي. أنا سالم المؤتمن, إبن هذه الأم التي لم يبق لي من أعيش معه في هذا المنزل سواها. تستحوذ عليّ الرغبة في البوح، وتتدافع الوقائع والصور في مجرى ذكرياتي, ولديّ الكثير مما أحكيه. وإذا تردّدتُ, فلأني لا أملك ما أدهشكم به, أنتم الذين خبرتم المدهشات كلَّها فلم يعد من السهل إدهاشكم.

أدرك أنه إن كان عليكم أن تصغوا إلي فعليّ أن أجيء بجديد. فكيف أجيئكم بالجديد ما دامت حكايتي مماثلة للحكايات التي تتداولونها كلّ يوم. لن أخترع شخصاً غير شخصي. لن أختلق حكاية غير حكايتي, لن أهوّل أو أكذب, ليس لأني مختلف عن الذين يختلقون ويهوِّلون ويكذبون ليظفروا بإصغائكم، بل لأني انتهيتُ إلى الضيق بما يشوّه الحقائق, ولم أعد أملك إلا القدرة على الصدق, وحده.

وأعرف ولعكم بتلوين حكيكم وإخراجه عن النمط المكرّر. لكني لا أملك تلبية هذا الولع. ولنقرّ: إننا مستغرقون في التكرار. استنفدتم الحكي على ما كان جديداً، وتوقفتم عن إتيان أيّ جديد، فلمْ يبق إلا المكرّر من الفعل والقول. ومنذ فقدتُم القدرة على الإبتكار، صرتم بحاجة إلى التهويل حين تكرّرون الحكي على ما كان منكم أو كان لكم. وها إنكم، كما انتهى إليه حالكم، تسردون حكايات متماثلة مفتقرة إلى الإبتكار حتى في مجافاة الحقائق, ولا تتنافسون إلا في الاستئثار بالحكي, وأنْبهكم

هو من يسبق سواه إلى سرد ما سبق أن سمعه الجميع. هل صار التكرار يمتعكم, أو هل هي الحاجة لتزجية الوقت منذ صارت أوقاتكم فراغاً, أو هو الحرص على إدامة الإحساس بالأهمّية فيما أنتم عاجزون عن إثبات ما يُقنع بأنكم حقاً مهمّون؟

ولماذا لا نتكاشف, أليس صحيحاً, والحال هو ما آل إليه حالنا, أن عليكم الإصغاء إليّ حتى لو لم أُتحفكم بجديد. وإذا شئتم أن تعدُّوا إصغاءكم إليّ مهمّة جليلة, فليس في هذا ضرر لأيّ أحد. والذريعة حاضرة فما أسهل أن تتكئوا عليها: فأنا رفيقكم, ورفيقكم مأزوم, وهو بحاجة إلى إفراغ ما يثقل عليه, وأنتم لم تبتعدوا كثيراً عن الوقت الذي أَلِفتم أن تعدّوا كل ما تفعلون فيه جليلاً.

إذا سألتم لماذا أنا أو لماذا حكايتي أنا بالذات, فما أسهل أن أوضح الأمر, إن كنتم بحاجة إلى توضيح. حكايتي أنا, أعنى الحكاية التي لا يتوفر لكم إلا ما يماثلها, هي ما تحتاجون إليه كي يتّصل الحكي, كي يستمرّ بقاؤكم بدل أن يعنّيكم الإحساس بالغياب. وما دمنا نتكاشف فلنمض في البوح؛ فحتى حين يقع ما يلهب أدمغتكم بالأسئلة فإنكم تبحثون عن إجابات تطفئ اللهب بدل أن تؤجّجه. إنكم تطفئون ناركم, وغالباً ما تطفئونها بالترّهات. ما أعجب ما آل إليه أمركم! تخشون وقدة الأسئلة لأن نارها تُحمِّلكم مسؤوليات لم يعد لديكم جَلَدٌ على حملها.

ما وقع مؤخراً، أعنى الحدث الذي كان من شأنه أن يبدّل مألوفكم، أطلق أسراباً من الأسئلة، وأوقد نيراناً كان ينبغي ألا تنطفئ، غير أنكم لم تُبدّلوا عجيب أمركم حتى بعد هذا الحدث. وقد حاولتُ أنا الخروج على المألوف، حاولتُ، وأجهدت نفسي، لكني لم أظفر إلا بالحكاية التي أجيء بها إليكم، الحكاية التي ليس فيها جديد.

رُبّينا على الإيمان بأن كل ليل يعقبه نهار، لا محالة. قيل لنا إن الليل لا يدوم. وخُصَّ بالقول ليلُ الأسى والظلم، ليلُنا الذي ما أطول ما امتدّ وما أشدّ ما تراكم أساه. وركنتم أنتم إلى ما قيل وتواصيتم بالإيمان به والتعويل عليه. هدهد القول حاجتكم إلى التعلّل بالأمنيات فعلّقتم أمنياتكم عليه. لم تتهيّأوا لحالةٍ لا يطابق مجرى الحياة فيها قواعدَ الجغرافيا ووعودَ السياسة واستعارات الأدب. وحين بزغ نهارٌ بعد ليلكم الأول الطويل، لم تتصوروا أن يعقب هذا النهار ليل لا تبلغون نهايته. ومنذ أمضّكم التطلع إلى فجر لا يبزغ هلّلتم لكل فجر كاذب وأقنعتم أنفسكم بأنه أوّل النهار الجديد. وحين حُذِّرتم من زيف ما هلّلتم له، كنتم قد ألفتم التهليل للزائف واستمرأتم مخادعة النفس، وكنتم قد فقدتم ليس القدرة على التمييز وحدها، بل فقدتم أيضاً الرغبة في التمييز.

أنا واحدٌ منكم، انتشيتُ، مثلكم، بضوء الفجر الصادق الذي بزغ ذات مرّة. وسبحتُ مثلكم في ضوء النهار الذي غمر أرواحنا بأحلى الوعود. وبعدما وُئِدَ ذلك النهار، صار عليّ، مثلكم، أن أكابد

العتمات أو أتوسّم الضوء في بريق أيّ سراب. ألفتُ أن أُخدع، وصرت أُغالط نفسي بنفسي حين لا يخدعني سواي، وإذا لم يقترن السراب ببشائر خادعة، صرتُ أصطنع البشائر اصطناعاً. وانتهيتُ إلى ما انتهى اليه كلّ واحدٍ منكم، كففتُ عن التمييز بين الصدق وبين الخداع، وأدمنتُ صناعة الأوهام، وبمضيّ الوقت، غادرتْ أجنحتُنا منابتها، ولم يبقَ ما نحلق به إلا الأوهام، ونسينا أن الأوهام لا توقف الانحدار إلى القاع.

مع تفاقم المعاناة، غاضت الآمال الكبيرة الواحد تلو الآخر، فتشبّثنا بأمل السلامة وحده. حتى هذا الأمل لم يبقَ كما كان، بل تقلّص. كنا نبحث عن السلامة العامة، عن الحلّ الذي يعيد وطننا إلينا ويُمكّننا أن نعيش فيه أحراراً، فانتهينا إلى البحث عن السلامة الشخصية. وبإمكاني أن استبق سرد حكايتي وأُقرّ بأن أمل الظفر بالسلامة الشخصية بمعزل عن السلامة العامة هو أشدّ آمالنا شبهاً بالأوهام.

يجدر بي أن أروي الحكاية من أوّلها، بالرغم من أنها ليست فريدة. ولمَ لا أفعل، ألا تحكون أنتم وتكرّرون حكايات متماثلة! لو رأيتُ أنكم توّاقون حقاً إلى الجديد، لعددتُ هذا إشارة طيّبة، الإشارة التي تبشر بالتعافي وتخلّصني من الظنون التي افترست يقيني، ولمَا حلّ في جسدي وروحي الكلال الذي هدّهما معاً. ولو جئتم إلى الحق، إلى ما تعرفونه وتهملونه، لرأيتم في حالكم ما أراه أنا وقلتم ما أقوله. فحالكم فريد حتى وهو يماثل سواه، حالكم جماعة وحالكم فرداً فرداً. كيس بطاطا أنتم، كيسٌ طال احتشادكم فيه. أو، إن شئتم وإن جاريتُ ولعكم بتجميل ما ليس جميلاً، فأنتم كيس برتقال، كيس زيتون، أو كيس أيّ واحدة من الثمرات التي تتباهون بها وتعدّون التّباهي بها من سمات الوطنية. كل حبّة في الكيس تشبه الأخرى. وإن تمايزت حبّات عن سواها، فإن التشابه لا يُنتقص؛ حبّة صغيرة وأخرى كبيرة، واحدة ذابلة وأخرى عفيّة، واحدة معطوبة وأخرى سليمة، واحدة كامدة وأخرى لامعة، إلا أنها جميعها متماثلة. حالكم فريد حتى مع تكراره، تَماثُلُ تفاصيله فريد وكذلك اختلافها.

تقولون إن تميُّزكم سطع في تمكُّنكم من الاستمرار في الوجود بالرغم من جهود عدوّكم المتواصلة لإبادتكم، فيا له من قول! لكأن الذين شُرِّدوا من أوطانهم قبلكم أو بعدكم لم يستمرّوا في الوجود، أو لكأن الغجر أو اليهود الذين تعاقبت محاولات إلغاء وجودهم قد فنوا! تقولون إنكم قاومتم محاولات إبادتكم، لكأنكم لم تفعلوا طيلة حياتكم شيئاً سوى المقاومة، أو كأن غيركم أسلم رقبته طائعاً. نظّمتم حتى وأنتم في المنافي ثورة لم تكن أبداً مثل أيِّ ثورة. تتباهون بهذا كما لم تتباهوا بأيّ شيء سواه، فهو، إذاً، بيت قصيدكم، صدر هذا البيت وعجزه وإيقاعه المتميّز، الظاهر من معناه والمستبطن. الثورة التي أطلقتموها من منافيكم كانت مفخرتكم، فماذا بعد؟ هل تُحسبُ

الأمور ببداياتها أو بخواتيمها؟ بإطلاق شيء فاخر أو بالارتداد عنه؟ وماذا جنيتم من ثورتكم قبل أن توقفوها؟

أردتُ أن أبدأ الحكاية من أولها، فإذ بي قريبٌ من الخاتمة. وها هي ذي أسئلةٌ أملتها المرارات تعيدني إلى البداية. وفي بدايتي شيء ميّزني، شيء تذكّرته الآن فقط فوجدت ما ميّزني عن كثيرين منكم. فكلٌّ منكم ولد في مكان له إسم خاص به وسمات ينفرد بها. أما أنا فولدتُ في العراء، ولم يتحقق أحدٌ من اسم المكان الذي وُلدتُ فيه، ولم تحتفظ ذاكرة أحد بسماته. ولئن وُلد كل منكم قبل نكبة أهله أو بعدها، فأنا وُلدتُ في يوم نكبة أهلي بالذات. إنه اليوم الذي اقتلع الظلم فيه أهلي من يافا وأسلم الناجين منهم إلى دروب المنافي. وإذا توخّيتم الدقة، فإني ولدتُ في اليوم الذي اشتدّ فيه هجوم الهاغاناه اليهودية على مدينة أهلي، وكان مولدي على الطريق الواصل بين منزل الإقامة وبين خيمة اللجوء.

يومها، عزمتْ أمي على أن تنأى بجنينها وصغارها الذين وَلدتْهم قبلي عن الأخطار التي داهمت يافا. فغادرت أمي المدينة، فيما بقي أبي مع من بقوا ليدافعوا عن يافاهم. ولأن الأخطار اجتاحت الوطن بطوله وعرضه، فإن أمي اختارت أن تتوجه إلى عمّان لكي تلدني في مكان آمن. وعلى الطريق، في صندوق شاحنةٍ مكتظةٍ بأحمالها من البشر والحوائج، داهم الطلْقُ أمي، واشتدّ، فلم يبقَ إلا التوقف ما دام صندوق الشاحنة لا يوفّر متسعاً لقضاء أيّ حاجة. ولأن سائق الشاحنة رفض أن ينتظر أطول مما انتظر، فإن أمي وصغارها تُركوا في ذلك العراء لغموض العتمة التي استحكمت وهواجسها. وهناك وُلدتُ أنا. فلا تستغربوا أن المسكونة، في ساعة ولادتي، بالخوف والقلق والأوجاع لم تحتفظ في ذاكرتها بأيّ سمات للمكان ولا تيقنت مما إذا كان غربيّ النهر، أيْ في فلسطين، أو شرقيّة، أيْ في الأردن، ولا عرفت ما إذا كانت صرختي الأولى قد سُمعت قبل منتصف الليل أو بعده.

جئتُ إلى الدنيا أخاً لأربعة، صبيّ في الثانية عشرة وثلاث بنات أصغر منه. ومنذ ولادتي قُدّر عليّ أن أصير يتيم الأب؛ فأبي استشهد في ليلة مولدي قبل أن يعرف أن زوجته وضعت الصبيَّ المأمول بعد ثلاث بنات. وهكذا، لئن نشأتُ في ظروف قاسية، فإني ظفرت بما يتمتّع به آخر العنقود: حنان الأم الذي لا يوهنه شيء.

نشأتُ في مخيم للاجئين أنشأه طوفانهم الذي اشتدّ مع احتدام الصراع داخل وطنهم. نبت المخيم في عراءٍ في محيط عمّان، ونما، فنموتُ أنا مع نموِّه، وتدرجتْ أحوالي مع تدرج أحواله. أقمنا في البداية في خيمة. وحين بدأت أعي ما حولي، كنا ما نزال في هذه الخيمة. أما حين أُرسلت إلى المدرسة

الابتدائية، فإن الخيمة كانت قد استقرت صورة في ذاكرة الطفل وكان قد حلّ محلها البرّاكة المصنوعة من الخشب وألواح الزينكو. وحين انتقلتُ إلى الإعدادية، كان أخي الكبير قد وجد طريقه إلى الكويت وظفر بعمل في إمارة النفط هذه، ولم يبق عيش أسرتنا مرهوناً لما تُقدِّمه الأونروا وحده، وأنتم تعرفون ضآلة ما كانت تقدِّمه. انتقالي إلى الثانوية تمّ بعد أن كانت عمّان قد توسعت وصار مخيمنا واحداً من أحيائها الكبيرة وصار لنا فيه منزل هو بناء حلّ محلّ البرّاكة. منزل حقيقي، حجرة للزوار واثنتان للنوم وأخرى للمعيشة، ومطبخ وكذلك حمّام. وصار الواحد منا قادراً على التعّري في الحمّام أو التجول بين الحجرات دون أن يخشى عيون المتلصّصين أو آذانهم.

استمرت الحياة، إذاً، بعد النكبة. وللحياة منطقها الذي خبرتموه. فنوازع البقاء أقوى من محاولات الإبادة. تَثقلُ الأعباء إلى حدّ يصعب احتماله، تتراكم العقبات، وتنسدُّ السبل، إلا أن العازم على الاستمرار في البقاء لن يفقد القدرة على شقِّ المسارب. ولكَم كانت عزيمة أمي شديدة، الأم التي ترمّلتْ وهي في الثلاثين وأبت أن تتزوج ثانية، والتي خصّصت وقتها وجهدها وخبرتها لإخراج أسرتها من العوز. والحياة، حتى في أقسى الظروف، لا تخلو أبداً من فرص التمتع بالمسرّات. أختي الكبيرة تزوّجت ونحن ما نزال في الخيمة، فشهدت خيمتنا التماعات فرح، وشهد المخيم احتفالات. الأخت الثانية تزوّجت ونحن في البرّاكة، فشهدت البرّاكة وشهد المخيم فرحاً أدفأ واحتفالات أوسع. ولأن زوجيّ الأختين كليهما يعملان في الكويت، فإن أُختيّ انتقلتا إلى هذه الإمارة، فصار منامنا في الخيمة ثم في البرّاكة أرحب.

أما أصغر الأخوات، ساجية التي ما كان أشدّ تميزها واعتزازها بنفسها، فإنها تابعت الدراسة حتى أتمت الثانوية وتطلّعت إلى الجامعة. وما أكثر الخطّاب الذين أبت أختي هذه الاستجابة لهم إلى أن تقدم من وعد بتوفير فرصة الدراسة الجامعية. كان الذي قدّر ولع ساجية بالدراسة الجامعية مقيماً في الولايات المتحدة الأميركية فأغواها بالفرصة التي جزم أنها متوفرة هناك لكلّ طالب. وفي المنزل الذي كان بناؤه قد اكتمل، احتفلنا بزواج ساجية وتوديعها معاً.

منذ ذلك الوقت، بقينا في المنزل وحدنا، العجوز وأنا. ها أنا ذا قد سمّيتها العجوز مع أن هذه الصفة لم تكن لتنطبق على سيّدة الأسرة التي لم تهدّها كثرةُ الأعباء. غير أن المنزل كان يعمر بنزلائه الكثيرين في إجازة الصيف. أخي الكبير والأختان اللتان انتقلتا إلى الكويت وزوجاهما وأولادهم الذين يزيد عددهم واحداً أو إثنين كلّ سنة، أعضاء هذا الحشد العائلي ثابروا على زيارتنا في كلّ صيف، ومعهم كان يزورنا الصخبُ والأفراح والهدايا.

ساجية وحدها لم يصلنا بها في غربتها النائية إلا المكاتيب. غير أن غياب ساجية عن مواسم الصيف

لم يمنع تجدّد بهجة عجوزنا في كل موسم، هي التي كانت تشهد بأم العين كيف ينمو أحفادها وتتحسّن الأحوال، وكم ابتعدت الأسرة عن سنوات العوز المهين. ولكَم كان يفتنني مشهد أمي وهي تستعيد كلّ صيف دور ربّان السفينة وتحرص على أن يجري كل شيء بأتمّ ما يرام!

أستحضر احتفال الأسرة بنجاحي في الثانوية. أمي، ربّانَ السفينة، قرّرت: "لم نخصَّك، بعد، بأيّ احتفال، هذه المرة سنعوّض كلّ ما فات". أَستحضرُ صورة الأم، القامة المنتصبة وسط حشد أعضاء الأسرة، والوجه الذي اكتسى سمارُه رونق أيام فتوتها، والتماعة البهجة وهي تشعُّ من منبع روحها. أستحضر الزغرودة التي أطلقتها أُمُّ الجميع حين احتضنني أخي الكبير وقد برقت في عينيه طلائع دمعتين يغالب انبثاقهما.

في ذلك الصيف، أطال أخي زيارته. رجل الأسرة هو، صقلته الغربة، الغربة المضاعفة، وشحذ السعي المبكر في طلب الرزق همّته، وأكسبه شيلُ المسؤولية المبكّر حكمةً تميّز بها. فكيف لا يصير لهذا الأخ الشخصية الناضجة التي طالما فتنتني وبناؤها المتين!

شاء الأخ الكبير أن يُرتِّب أمر دراستي بعد الثانوية، أمر مستقبلي كما سمّاه: "العمل حرمني أنا من الجامعة، وأختانا الكبيرتان، أنت تعرف، وساجية لم تُحقِّق أُمنيتها حتى الآن بالرغمْ من وعود زوجها، وإذاً...". لم يحتج أخي إلى كلام كثير لحثّي على التوجه إلى الجامعة، فأنا لم أفتقر إلى الرغبة في متابعة التعليم. أما ما افتقرتُ إليه فكان وضوح الهدف، أيّ دراسة أختار، وهذا هو ما وجهني أخي إليه: "رغب أبونا في أن يراني أنا طبيباً. الفرصة التي فاتتني متاحة لك أنت، لكني لا أصرّ على الطبّ إن كانت لديك رغبة أخرى".

كنا في العام ١٩٦٥. وكان أمامي لدراسة الطبّ أن أختار، إمّا دمشق أو بغداد أو القاهرة. والعجوز هي التي أخرجتني من حيرتي: "دمشق هي الأقرب. حسمتُ الأمرين: التخصّص والمكان، وبقيتُ متهيباً إزاء النفقات، سبع سنين وأكلاف ثقيلة. لكن أخي صرفني عن الإنشغال بهذه المسألة: " حتى حين انحدر حالنا إلى ما دون الصفر، استطعنا أن نُدبّر أمورنا، حالنا الآن أفضل، فلا تقلق"! آه يا أخي، كم كنت كريماً!

هل ابتعدتُ كثيراً عن السبب الذي دفعني إلى الحكي. هل أمللتكم وأنا أستحضر وقائع مماثلة لما خبره كثيرون منكم. أعرف كم تماثلت خبرة الأسر اللاجئة. أعرف كيف كان في كل أسرة أخ كبير أو أخت كبيرة ضحّى الواحد منهما براحته وطموحاته الشخصية ليشقَّ الطريق لإخوته الصغار. أعرف أن معظم الأسر حظي بأمهات مثل أمي، رعين زغاليلهنّ وحرصن على أن يظلوا متضامنين. وإذا شئتم أن أرجع إلى أول حكايتي الذي يُبلغكم آخرها، فسأحدِّثكم عن حضور الوطن الذي نشأتُ

خارجه في ذهن الطفل الذي كنتُه. ولأقل قبل فيض التفاصيل إن هذا الحضور ظل قوياً منذ وعيت أن لي ذاكرة تختزن ليس ما أراه رؤية العين وحده، بل ما أسمعه أيضاً، وأن مخيِّلة الإنسان تحوّل الكلام إلى صور.

في البداية، كانت يافا هي الوطن. وإذا أردتم معرفة بداية هذه البداية، فإن صورة الوطن تجسّدت بدارنا في يافا. ففي الخيمة ثم في البرّاكة، في الذي حُشرنا فيه، امتلأت مخيِّلتي بوصف أمي لدارنا المتروكة في المدينة التي يحرمنا عدّونا من العودة إليها: طابق الدار الأرضي، والحديقة التي تكتنفُ الدار، ومنابت الزهور، والأشجار، والنافورة التي أقامها أبي وسط الحديقة وزوّقها على مزاجه، وحجرات هذا الطابق، ما خُصّص منها لاستقبال الزوار الغرباء، أو للطعام، أو للسمر. والطابق الثاني، عِلِّيةُ الدار التي تطلّ على الجهات الأربع، والشرفة الغربية المطلّة على البحر، والمكتبة التي عُني أبي بتنمية كنوزها وشجع أمي على الاغتراف منها ولم يبخل بها على الأصحاب، وحجراتُ النوم التي تنفتح نوافذها على البحر حيث يرى الناظر من أيّ نافذة، أو يسمع، أو يحسّ، الميناء وقوارب الصيادين، والسفن، والأمواج أبدية الحركة وهديرها الجليل أو هسيسها المؤنس، والعواصف أو النسائم، وكل ما هو من هذا القبيل الأخّاذ، أيْ كل ما تفتقده في المنفى.

المقتلع عنوة من وطنه لا يستحضر من حياته فيه إلا الصور البهية وأوقات الهناء. وأمي، وهي المحتاجة إلى التعويض عن بؤس حياتنا في مخيم اللجوء، زادت ما تستحضره بهاءً. وأخي الذي ورث الوطنية من مجالس أبينا ونمّاها كان حريصاً على تنمية حبّ الوطن في روحي وتمتين توقي للعودة إليه.

في المخيم الذي تضيق دروبه حتى بأجساد عابريها، حضرتْ شوارع يافا العريضة وساحاتها الفسيحة والبحر الذي لا حدّ لمداه، وحضرت السهول المتموجة على مدّ النظر بالألوان. وفي مقابل القذارات التي تملأ دروب المخيم ومجاريه المكشوفة، حضرت يافا النظيفة على الدوام. ولأن البراري المحيطة بالمخيم كانت جرداء، فإن السهول المحيطة بيافا انبسطت بما هي أخصب سهول وظلّت عامرة على الدوام بالزرع وبساتين الفاكهة وبيارات البرتقال. وفي مقابل سوافي الرمل الصحراوي التي تغمر المخيم، لم يرد ذكر الهواء في مدينة أهلي إلا بوصفه أنقى هواء. وإذا خالط شيء هواءَ يافا، فهو شذى الزهور وطراوة البحر وشميمهما الفتّان.

وعلى مقاعد الدراسة، اتسعت الرؤية بمضيّ الوقت، ومثُلَ الفردوس المفقود شاملاً فلسطين كلَّها؛ مثُلَ في أحاديث التلاميذ الذين جاء أهاليهم من قرى ومدن فلسطينية عديدة، ومثُلَ في كتب الدراسة وأحاديث المدرّسين، خصوصاً أحاديث المدرسين. هنا، رُسمت الجغرافيا الوطنية في مخيِّلتي بما يؤجج التعلق بالوطن المفقود، وأنشئ التاريخ بما يلائم الإفتخار بالماضي والتوق إلى استعادة ما

فُقد. ومن هو التلميذ الذي لا تؤثر فيه أحاديث مدرّسيه، خصوصاً حين يتحدى هؤلاء المحظورات ويخصّون تلاميذهم بمعلومات وأفكار لا يجدها التلميذ في كتب الدراسة. ومن جهتي، كنتُ أتصوَّر، كلّما حدّثنا مدرِّسٌ بشيء تُغفله كتب التدريس المقرَّرة، أن المدرِّس يرى فينا أنداداً له يُطلعهم على الأسرار. وكان هذا يبهجني.

الأونروا، وكالة غوث اللاجئين الدولية هذه، كان لها دورها من حيث لم يحتسب منشئوها: خدماتها، المطلوبة لأنها مسعفة للمحتاجين إليها، والمذمومة لأنها مهينة لهم، حاجةُ اللاجئ إلى الظفر بالمعونة، واعتياده الظفر بها حتى بعد تضاؤل الحاجة، وإحساسه بالهوان في الحالتين، وكلُّ هذا الذي خبرتموه وجعلكم تضيقون بالأونروا وتصبّون عليها شتّى اللعنات، حتى وأنتم تتسابقون للظفر بما تهبه لكم. وقد ينبغي أن أذكّركم بما أخشى أنكم نسيتموه: كيف أسهم الضيق بخدمات الأونروا في تمتين تعلُّقنا بالوطن. فإزاء مذلة الحصول على حليب الأونروا برائحته ومذاقه المقزّزين، ظلّت أمي تستحضر الحليب الذي كانت تحصل عليه في أيام العزّ: "في يافا، كنّا نشتري الحليب بحُرٍّ مالنا، الحليب الطازج الذي يجلبه الحلاب بنفسه إلى دارنا كلّ صباح، وليس حليب البودرة الزنخ الذي يجبرونا في مراكز الأونروا على الوقوف في الدور ساعة، وساعتين، كي نحصل عليه". وإزاء شح الموادِّ التي توزِّعها الأونروا ورداءتها، ظلّت المكتوية بذلِّ الحاجة تستحضر أيام الوفرة والجودة: "كنّا نأكل أجود خبز، الخبز المصنوع من قمح سهولنا الذي لا مثيل له في الكون. وكنّا نحصل على أكرم زيت، زيت زيتوننا الذي باركه ربّ العالمين. والصابون كنا نجلبه بالأرطال، صابون نابلس الذي ليس في الدنيا صابون أحسن منه". وما أشدّ ما كان أسى أمي يفيض: "في غربتنا الملعونة، صرنا نشتهي اللحم، وإذا اشترينا لحماً فبالأوقية. أما في يافا فكان اللحم بالرطل، أو بالشقة، أو الذبيحة الكاملة. السكّر والأرزّ والعدس والفول، هذه التي تعطينا الأونروا منها حفنات يسبح فيه السوس، كنّا في يافا نخزنها بالأكياس ويزيد الخزين عن حاجتنا فنجود به على المحتاجين". ويوم اشتكيت أنا الطعم المقزز لزيت السمك الذي تحضره الأونروا إلى المدارس ويجبرونا على ابتلاعه، حضرتْ ذكرياتُ ربيبة الشاطئ: "عشنا لنعرف على يد الأونروا أن السمك له زيت! في يافا، كان أبوك يجلب السمك بالمفارش، ليس أقلّ من مفرش كامل كل مرة، طازجاً وشهياً يفتح النفس. ولم يقل أحد وقتها إن للسمك زيتاً".

ثم كبرنا. ألا يكبر الصغار دوما. وانضاف تأثير السياسة فمتّن تطلُّعنا إلى استعادة الوطن.

فلسطين التي في حكي كل سياسي، في برامج كل حزب وكل حكومة، في أدبيات كل منظمة حتى لو كانت نادياً رياضياً أو جمعية خيرية. أنتم لم تنسوا كيف كان الحكي على فلسطين يفيض على مدار الساعة، في الإعلام، في الاجتماعات الصغيرة والكبيرة، في المجالس الخاصة والعامة، الحيوات التي أُفنيت، الجروح والاعاقات، الأملاك المنهوبة، الحقوق المنتهكة، والكرامات الممتهنة. معارضاتٌ

تنشط ضد حكومات، حكومات تلاحق معارضات، تُسقط معارضةٌ حكومة أو تفتك حكومةٌ بمعارضة، والجميع، المعارضين والموالين، الفاتك والمفتوك به، الجميع، دون استثناء، ينسبون ما يفعلونه إلى ما تتطلَّبه معركة تحرير فلسطين وإعادة اللاجئين إليها.

كبرنا، فكبر الوطن في المخيّلة، وزاد تباهينا بما كان لنا فيه. كنتُ أتباهى بأبي الذي لم أره أبداً، أروي ما ترويه أمي عنه وأزيّنه، وأدلُّ على أقراني بأني إبن شهيد. كنت أتباهى بدارنا في يافا، وبيافا، أتحدّث عنهما، أنا الذي لم يرهما رؤية العين، وأكرّر ما أسمعه، وأزيّنه. كبرتُ، فاتسعت الرؤية، فصرتُ أتباهى بكل شهيد وكل قرية وكل مدينة، وأنسب الأمجاد إلى الجميع. كان ناس وطني في ما أرويه عنهم أبطالاً جميعهم، لم يُقصّروا في جهد، لم يضنّوا بأيّ تضحية، لم يدخل الإسرائيليون قريْة أو مدينة إلا على جثث المقاومين الذين خفّوا للدفاع عنها. أما النكبة التي حلّت بوطني، فكنتُ أنسبها إلى خيانة الحكام العرب وعمالتهم للمستعمرين البريطانيين والفرنسيين والإسبانيين والايطاليين، أو للأميركيين.

ألم تفعلوا أنتم الأشياء ذاتها، المفاخرة، والتهويل في الحكي على الأمجاد، ورمي مسؤولية ما حلّ بشعبنا على سواه. ولم لا نعترف: كنّا بحاجة إلى هذا كلّه، فلبّينا حاجتنا. وهل كنّا سنطيق الحال الذي انحدرنا إليه لو لم نستعن عليه بأمجاد الماضي، الواقعيّ من هذه الأمجاد والمتخيّل!

ما أشدّ ما تُسيطر عليّ الرغبةُ في البوح، أهو تأثير ما كتمته عن أمي، أم هو وجع روحي من خيبة الأمل، أم هي نذر العلة التي في القلب، العلة التي داهمتني أولى نوباتها وأنا في غزّة وأنذرني تفاقمها بقرب النهاية! كيف أتخفّفُ من أثقال الروح والجسد إذا لم أحك حكايتي كلها؛ وكيف أبلغ نهاية حكايتي قبل أن يستأثر غيري بالحديث فيروي حكايته المماثلة وتضيع فرصتي؛ وهل أعرف حقاً نهاية ما بدأت به؛ هل ارتسمت نهاية حكايتي أو نهاية أي حكاية؛ وهل أنا على يقين من أن خيبة أملي هي النهاية التي لا تبديل لها، هل للحكاية نهاية، هل من اللازم أن تكون لكل حكاية نهاية؛ أليست حكايتنا جميعنا هي هذه الحكاية الواحدة التي تتوالى فصولها من قبل أن نولد دون أن تبلغ أيّ نهاية؟

ها هو ذا فصل آخر يحضرُ فيحثني على الرجوع إلى السياق الذي شرعت فيه. إنه جديد آخر يخصني، أنا الذي تعرفون أني شقيق قائدكم الشهيد فادي المؤتمن. هذا الفصل بدأ منذ انتبهتُ إلى أن إسم أخي يُتداول همساً في مجالس بعينها، خصوصاً حين تضطرب الأحوال العامة ويشتدُّ فتك السلطة بمن لا ترضى عنهم. آنذاك، كنتُ فتى في عزّ المراهقة، في سنتي الأخيرة في الثانوية. وإزاء تواتر الهمس، حفزني الفضول إلى تقصّي ما يختفي وراءه، فوقعتُ في سيرة أخي الكبير على ما صار من حقّي أن أعتزّ به.

كان إسم أخي محاطاً بغموض آسر، وكان المتهامسون يتداولونه باهتمام ومحبّة واحترام. فأدركتُ أن للأخ شأناً إن يكن محموداً فإنه خطير يحرص عارفوه على كتمانه. وحين سألتُ أمي، تكتّمت الحريصة على سرّ إبنها، وطلبت مني أن ألجم لساني وأنشغل بدراستي وحدها، ونهتني عن الانقياد وراء فضولي. فاستخلصتُ أنا أن سلامة أخي توجب التكتّم. ووجدتني متواطئاً بإرادتي وحدها مع الحريصين على عدم كشف السرّ. وصرتُ أتعمّد، كلما جئت على ذكر أخي، أن أضمِّن حديثي عنه ما ينفي وجود أي سرّ، ما يُضلِّل أيّ باحثين عن سرٍّ لا أعرفه أنا نفسي.

وفي منتصف العام المدرسي، صدر البلاغ الذي لا ينساه أيّ منكم، البلاغ الذي أنبأ الناس بأن ثورة الفلسطينيين أطلقت رصاصتها الأولى ضد مغتصبي وطنهم. فربطتُ من تلقاء نفسي بين أخي وبين الانطلاقة، لكني لم آذن لنفسي بالبوح بما استخلصتُه بشأن صلة أخي به.

وفي الصيف الذي تلا صدور البلاغ، حين انهمك أخي في ترتيب أمر دراستي الجامعية، ناقشتُ معه شؤوناً كثيرة إلا هذا الشأن. كنتُ الولد الذي يحفّ بأخيه ذي السرّ الخطير فيحرص على التكتم ليصون سلامته. ولكم أن تعرفوا أني كنت مفتوناً بنفسي، فأنا إبن شهيد وأخو مناضل، وأنا حامل السرّ الخطير الذي يُفلح في لجم الرغبة في البوح به.

في الصيف التالي، بعد أن أنهيتُ سنتي الجامعية الأولى في دمشق، التأم شمل الأسرة، كالعادة، في مخيمنا في عمان. وقتها، تبدد الغموض وانكشف السرّ دفعة واحدة للجميع. فقد اعتقل فادي، جاء إلى منزلنا رجالٌ صارمو الوجوه والحركات واقتادوا أخي إلى المعتقل. وبعد أيام، زارنا رجل متكتّم وطلب الإختلاء بي وبأمي. وافتتح الرجل حديث الخلوة بالعبارة الموحية: "أنا من الثورة مرسل إليكم لأعرف حاجاتكم". ومنذ ذلك الوقت، انضاف إلى شبكة مشاعري شعور من نوع جديد، إنه الشعور الذي خبره كل منكم وتمتّع به: شعور الزهو بالصلة بعالم الثورة وناسها.

بهذا الشعور، طاب لي أن أعوّض أمي ما افتقدته بتغييب فادي في المعتقل، فعرضتُ أن أقطع دراستي لأبقى معها. قلتُ لأمي إن بقاءها في هذا الظرف في المنزل وحيدة موجعٌ لي. وبإمكاني أنا الانتساب إلى كلية أخرى لا يلزمني الانتساب إليها البقاء بعيداً عن المنزل. عرضتُ هذا، في ما بدا لي، مدفوعاً بالرغبة في اتِّباع أمثولة أخي، أردتُ أن أضّحي بشيء لتهنأ أمي بوجودي معها. غير أن التي لا تزعزع الطوارئ تماسكها رفضت عرضي: "أبوك، وبعده أخوك الكبير، ومعهما أنا، أردنا أن يخرج من أسرتنا طبيب". أما تكاليف دراسة الطب والإقامة الدائمة في دمشق، التكاليف التي تذرعت بافتقارنا إليها فيما أخي معتقل، فإن أمي كررت بشأنها ما سبق أن قاله ذلك الأخ: "تدبّرنا أمورنا في أسوأ الظروف وبالإمكان تدبّرها الآن، فلا تقلق"!

إنكم تتذكّرون أن فادي بقي في المعتقل سنة بطولها. وبعد هذه السنة، وقعت حربُ ١٩٦٧، وتعرضت جيوش الدول العربية التي واجهت جيش إسرائيل المتفوق لهزيمة ماحقة. وكما قد تصير الضارة نافعةً، أرغمت الهزيمة حكومات الدول المهزومة على الإفراج عن المعتقلين السياسيين. وقد تتذكّرون كيف انتقل فادي من المعتقل إلى موقعه في قيادة الثورة، فيما انتقلت الثورة من العمل السرّي إلى نشاطها الذي جُلّه علني، واكتظت مواقعها في بلاد العرب بسيول المتزاحمين للالتحاق بها. أما استشهاد فادي، استشهاده وهو يقود المقاتلين المدافعين عن الثورة، الاستشهاد المتميّز كما تصفونه، فأنا واثق من أن حكايته لا تغيب عن بال أيٍّ منكم.

كنت قد انهيت بنجاح سنتي الثانية في كلية الطبّ حين أفرج عن فادي. أفرحني أني لم أفشل بالرغم من اضطراري إلى توزيع وقتي بين دمشق وبين عمّان وجهدي بين الدراسة وبين الاهتمام بأمي. أمّا بعد النجاح، بعد اتساع نشاط الثورة وانهماكي في بعضه، فإن دراستي بدأت تتعثر. لم يُفسدني كوني الأخ الصغير الذي يركن إلى شهرة أخيه الكبير، كما قد يظنّ بعضكم. ولم يُفسدني تدليل أمي، كما قد يقول بعضكم. كل ما في الأمر أنه الجوّ العام الذي كثرت فيه المشاغل واجتذبتنا كلّنا إلى الميدان. إني أقرّ بما خصَّتني أمي به، خصوصاً حنوَّها، ورعايتها الحادبة، وحتى تساهلها إزاء نزواتي. أقرّ بأن شخصيتي لم يتوفّر لها متانة شخصية فادي ومثابرته ومقدرته على تحمل المسؤولية في كل ظرف. لكن، أليسوا كثيرين أولئك الذين رعتهم أمهات حنونات، فهل فسد هؤلاء جميعهم؟ ثم أليسوا كثيرين أولئك الذين لهم أقرباء مشهورون، فهل تعثّرت دراسة هؤلاء كلّهم؟ أرجو أن لا تكونوا قد نسيتم أن ألوف الطلاب وَهنَ انشغالهم بالدراسة منذ صعد نجم الثورة واجتذبتهم إليها، وأن كثيرين من هؤلاء ترك الدراسة وتفرّغ للعمل الثوري. ستقولون إن طلاباً كثيرين وازنوا بين واجب الدراسة وبين واجب العمل الثوري وأفلحوا في أدائهما معاً. ليكن الأمر كما تقولون، بل إني أقرّ بأن ما تقولونه صحيح. غير أني لم أُجارِ هؤلاء بالذات، بل كنتُ في الفريق الأخر. ولكم أن تعرفوا أن أمري مع دراستي الجامعية انتهى بأن انقطعتُ عنها ثم لم أرجع إليها.

تأثير فادي في حياتي، تأثيره الحاسم، هو ما أحدثه فيّ استشهاده، ليس الاستشهاد في حدّ ذاته، بل الطريقة التي استشهد أخي بها. كيف أشرح طبيعة هذا التأثير فأجعله مفهوماً، أنا الذي لم أفهمه بتمامه إلا أولاً بأول وبعد مضيّ زمن مديد. كيف أُفلح في وصف مشاعري أنا الذي تُقصّر لغتي عن وصف المشاعر حتى وهي مستقرة. لن أُحدِّثكم عن أساي، فالأسى لا يصير مهلكاً حين يقترن بالفخار. لن أحدِّثكم عن تعزِّيّ بحفاوتكم بتضحية فادي، أنتم الذين ألفتم في ذلك الوقت إعلاء شأن التضحية. إن ما امتلك مشاعري هو إقدام فادي على التضحية بحياته حين كان بمقدوره أن ينجو. تعرفون أن فادي فعل ما فعل حتى يُقدِّم أمثولة تمنع غيره عن تسويغ الاستسلام بدعوى

فقدان الحيلة. تعلمون أن محاصِري فادي كان في متناولهم أن يناوشوا حتى تنفد ذخيرةُ المحاصَرين فيتمكنوا بشيء من الجهد أن يمسكوا بهم أحياء. لكن الذين حاصروا مقاتلي الثورة تقصّدوا الإساءة للثورة ذاتها، فعرضوا على القائد أن يستسلم هو ومقاتلوه فيضمنوا حياته هو إن رضخ لشروطهم المهينة، وأبوا أن يقدموا الضمانة ذاتها للمقاتلين. وبين خيارين، اختار فادي القتال إلى أن تنفد الذخيرة، وتقدم هو مقاتليه في المحاولة الجريئة لفك الحصار، وباستشهاده، قدّم الأمثولة التي توخاها؛ فَتَح قتال اليائسين ثغرةً في الحصار نجا عبرها كثيرون منهم.

إذا كنتم، أنتم زملاء فادي في الكفاح قد أُخذتم بأمثولته، فكيف لا أتأثر بها أنا إبن أمه وأبيه! مجّدتم تضحية فادي وأشهرتموه رمزاً ملهماً للمكافحين من أجل الحرية. وأنا الذي كنتُ إبن شهيد لا تتميّز تضحيته عن تضحيات سواه، صرتُ أخا الشهيد الرمز، فتبدّل مجرى حياتي.

قبل استشهاد فادي، كنتُ أخصّص للنشاط العام وقتاً وللدراسة وقتاً واستبقي وقتاً للمتع. وأغلب ظني أن أخي رغب في أن أنهمك بكليتي في نشاط الثورة، مثله هو، إلا أنه لم يفصح عن مثل هذه الرغبة في أيّ وقت، لا تصريحاً ولا تلميحاً، فهل كان ينتظر أن أنهي دراستي، أو أنه أحجم عن كشف رغبته لا لشيء إلا لأن هذا هو طبعه؟ في كل حال، اتخذتُ أنا المبادرة فور رحيل أخي. وحين سألني زملاء فادي في القيادة عن احتياجاتي: أجابهم عزمي الذي انعقد على هذا الأمر: "أريد فرصة كاملة، أعوّضُ ما فات، وأكمل رسالة الشهيد، ضحّى أخي بحياته، فلا أقل من أن أضحّي أنا بدراستي"! تفرغتُ للثورة، إذاً، وأنا موفور النشاط عفيّ الهمة. رفضتُ العمل الإداري الذي عُرض عليّ، أو قولوا إني استصغرتُ أن أعمل في إدارة، وندبتُ نفسي للعمل المسلح. وقي الدورة التي تُعِدُّ الضباط، حرصتُ على أن أكون في المبرّزين، وظفرتُ بالمرتبة الأولى. وبعد الدورة مباشرة، أُوليتْ إليّ مسؤولية قاعدة عسكرية، فأَوليتُ المسؤولية حقها كاملاً.

خوّضتُ معكم في المخاطر كلِّها، تهديني أمثولة فادي، وتحثّني الرغبةُ في أن أُثبت جدارتي، وتجتذبني الآمال التي لم أنتبه وقتها إلى ما انطوت عليه من أوهام. وحين أُخرجتم من الأردن، ذهبتُ معكم إلى سورية وتابعت المشوار في البلد الذي كنت ما أزال مسجلاً طالباً في جامعته. ولعلكم لم تنسوا، مشقّة إعادة تجميع القوى وإنشاء قواعد جديدة في سورية ولبنان تنضاف إلى ما كان فيهما من قبل، والمشي على مسنّنات التناقض بين ظرفين: سورية التي رحَّبتْ سلطاتها بوجودنا لكنها ملكت القدرة على ضبط إيقاع حركتنا فيها؛ ولبنان الذي ازورّت سلطاته بوجودنا لكنها لم تملك القدرة على ضبط أيّ إيقاع. ومن دمشق التي فاضت أعدادنا فيها عن الحاجة، انتقلتُ مع من انتقلوا منا إلى لبنان، وأُوليتُ من جديد مسؤولية قاعدة عسكرية، في جنوب لبنان هذه المرة. ومن موقعي هذا، شهدتُ توسُّع وجودنا المسلح وغير المسلح في البلد الذي ليس هو بلدنا، المبتلى برزايا شتى

صار توسُّع وجودنا فيه واحدة منها.

ما أكثر ما يحضرني كلما استحضرتُ ما شهده لبنان من فصول حكايتنا! انتشار مواقعنا فيه كما ينتشر الفطر في غابة، العسكريّ منها، والإداريّ، والسياسيّ، والإعلاميّ، خصوصاً هذا الإعلامي، ما له لزوم من المواقع وما ليس له أيّ لزوم. انقسام أهل البلد بين مؤيد لنا وبين معارض يجهر كل منهما بمواقفه، ومؤيد أو معارض لا يجهر أيّ منهما بشيء. ما صنعناه مما أثار الإعجاب وما اقترفناه مما ولَّدَ السخط. المغويات التي تعفَّف بعضنا عن الولوغ فيها ووقع فيها بعضنا الآخر فاستدرجتنا إلى الفساد. وها أنا ذا، بعد مضيّ سنوات كثيرة، لا أتذكّر الحصيلة دون أن تتناوبني الغصّات والحرقات!

في القاعدة، كانت أنباء ما يجري تبلغني، إلا أن انصرافي إلى المشاغل الكثيرة حرمني من تشديد الانتباه إليها. ويوم لم تكن كفّة المفاسد قد رجحت، وُجد من قدّروا أدائي، فأُوليتْ إليّ مسؤولية قطاع بكامله في الجنوب، حيث المواجهات المتواترة مع إسرائيل الماثلة إزاءه. كنّا نُغير ونتلقى إغارات، نوقع خسائر وتقع في صفوفنا خسائر. وبعد كل اشتباك تنتقم إسرائيل من تجمعات المدنيِّين، فتقصفُ مخيّمات اللاجئين الفلسطينيين، أو تقصف القرى والمدن اللبنانية وتستنهض السخط ضدّ وجودنا. وبمضيّ الوقت، وجدنا أنفسنا، جميعنا، مستغرقين في شؤون البلد الداخلية، ومنّا من استغرقتهم شؤون لبنان أكثر مما استغرقهم الصراع مع العدو الذي اغتصب وطننا كلّه.

وحين اندلعت الحرب الأهلية، وكان الاختلاف على وجودنا في البلد بين أسباب اندلاعها، حين راحت هذه الحرب الملعونة تحرق البلد وتغمره بزنخ رائحتها الطائفية، وجدنا أيدينا في النار، وانهمكنا في جهدين متناقضين: إطفاء حرائق وإشعال حرائق أخرى. ولم نسلم من زنخ الطائفية حتى ونحن نستنكرها. ولأن سبل الفساد الواسعة زادت بتأثير هذه الحرب اتساعاً، فما أكثر ما أوغل فاسدونا في الفساد، وما أكثر الذين تبعوهم أو نافسوهم! إنكم تعرفون: يفسد أحدهم فييسِّرُ الفساد لآخرين، وتستفحل الظاهرة.

انشغال ناسنا بغير إسرائيل لم يوهن انشغال إسرائيل بنا وبمن أيّدونا من ناس البلد، بل فاقمه. لم تكتف إسرائيل بتوفير السلاح والمساندة متعددة الشكل للطرف اللبناني الذي يحاربنا، بل شدّدت هجماتها على مواقعنا ومدنيّينا، الغارات البرّية، القصف الجوّي والقصف المدفعي، وأعمال الاغتيال والتدمير الخاصة، وكل ما تعرفونه مما لن يفارق ذاكرة أيّ واحد منا.

في هذا الجو الذي اختلط فيه كل شيء بأيّ شيء وتداخل الشيء ونقيضه، وجدُتني، مثل غيري، موزعاً بين المشاغل الموكولة إليّ وبين ما يجري في البلد. ومع زيادة اطّلاعي على ما كنت غافلاً عنه تكشّفت أمام ناظري القبائح المقترنة بشتى أنواع الفساد: فساد السياسة، الفساد الإداري، فساد

القيم ومعه فساد الذمم. وسرعان ما وجدتني في فريق المتذمرين، هؤلاء الذين يخشون طغيان السلبي على الإيجابي وينتقدون المسؤولين عن تردّي الأحوال.

مع الصخب الذي وسم وجودنا في لبنان وتواترِ المشاكل المتشابكة، اتخذتْ حياتنا في البلد مسالك روتينية؛ الماجد من النشاط صار روتيناً، واقتراف القبائح والافتتان بالمباذل والإيغال في المفاسد صار روتيناً. انبسط المكان واستوى الزمن ولا نتوءات. لا صعود، ولا تقدّم، بل تكرار للقول ونقيضه، للفعل ونقيضه أيضاً. والتذمّر، التذمّر ذاته، لم يلبث أن استوى هو الآخر وصار مثل الاستكانة، وهو إن لم يهِن فإنه لم يصر أكثر فعّالية. ألف الفاسدون أن يستهينوا بالانتقاد، وألف مستثمروا الفساد أن يصغوا إلى الشكاوى دون أن يكفّوا عن استثماره. وألف المتذمّرون الإمعان في الانتقاد دون أن يفعلوا أكثر من هذا، يمتصّ طرفٌ السخط بالإصغاء، ويتخفّف طرف منه بالحكي، ولا يتراجع أحدهما أو يتقدم آخر. يشهد القادة ما يجري ويسمعون ما يقال، ثم لا يتبدّل شيء.

كنتُ، تعرفون، قريباً من ذوي الشأن، من الذين يملكون سلطة توجيه الآخرين نحو فعل الخير أو إتيان الشرور. ولمّا كانت لي الدالة التي يوفّرها موقعي ويعزّزها التقدير الذي لإسم أخي، فإني ثابرت على انتقاد القادة في وجوههم كما في غيابهم دون تهيّب، آخذ على المتعفّفين من القادة قصورهم في مقاومة الفساد، مثلما آخذ على الفاسدين ولوغهم فيه. لكن هذا الذي ثابرتُ عليه أنا وأمثالي ظلّ، تعرفون، بغير طائل. أثقل عليّ الإحساسُ باللاجدوى، فصرتُ أقاومه بالوسيلة التي لم أهتد إلى سواها: الإمعان في المشاغل وفي الانتقاد. ولطالما حاول المستهدفون بسلاطة لساني أن يعثروا في سلوكي على ما يبتزّوني به فلم يفلحوا، فحاولوا أن يسكتوني بما أسكتوا به كثيرين، بالإغراق في الامتيازات، فاتضح لهم أن طموحي لا يصبّ في هذا الاتجاه. والذين أعياهم جهد محاولاتهم الفاشلة اشتغلوا على مرؤوسيّ وألّبوهم عليّ: "قائد قطاعكم متزمّت يُرهقكم بالأعباء، ويحجب عنكم فرص التمتّع بما يتمتّع به غيركم. فلمّا بقي بين مرؤوسي كثيرون متشبثون بالسلوك المستقيم، لم يبق أمام مستهدفيّ سوى إبعادي عن ساحتي. وللإبعاد، كما تعرفون، وسائل كثيرة أخطرها أن يبدو الإبعاد كأنه تكريم. من هنا، حصلتُ على ترفيع لرتبتي العسكرية، ونُدبتُ للسفر إلى الخارج لاتّباع دورة تؤهل حاملي رتبتي الجديدة لقيادة ألوية، ألوية في ثورة لم يتعدّ حجم أكبر تشكيلاتها حجم كتيبة.

غيبتني الدورة عن ساحتي سنة كاملة. وحين رجعتُ حاملاً شهادة تخرجي بامتياز، قال الذين أبعدوني إن مؤهّلي صار أكبر من المطارح المتاحة. ووفّر هؤلاء لي تكريماً جديداً من النوع الذي تعرفون طبيعته. فأُوليتْ إليّ مسؤولية إدارة كبيرة في بيروت، لقب جليل، ومكتب فاخر، ومعاونات ومعاونون لم أخترهم أنا، ثم لا ميزانية إلا للرواتب والنفقات الجارية، ولا صلاحيات، ولا مشاغل، ولا عمل.